عنوان البرنامج: مدخل لدراسة التصوف
الوحدة الثانية: معيقات منهجية لدراسة التصوف
الدرس الأول: التقيد بالمسبقات وعدم التجرد والاستقلال في الأحكام
اسم المحاضر: الدكتور عبد الصمد غازي

التقيد بالمسبقات وعدم التجرد والاستقلال في الأحكام

إن الدخول في قراءة أي نسق فكري بأفكار سابقة وعالقة في ذهن الباحث أو القارئ، يجعل هذا الأخير بمعزل عن الموضوعية في أحكامه، ويجعله لا يرى فيما يقرأ إلا ما يشهد لفكرته أو أفكاره المسبقة، كما يلجئه حجاب المسبقات هذا إلى تأويل ما يراه مخالفا لما استقر عنده من قناعات(أفكار مسبقة) على الوجه الذي يوافق ويؤيد «معتقداته» و«تمثلاته»، حتى ولو خالف ذلك أظهر قواعد التفكير، وأصح مناهج البحث.

لقد رسخ في أذهان كثير ممن اشتغل بدراسة التصوف الإسلامي- بحكم الحملات الإعلامية التي امتدت في الزمان والمكان وما تيسر لها من إمكانات مادية وبشرية هائلة- أنه ليس إلا ممارسة بدعية دخيلة على دين الإسلام، بل هي عنوان للشرك والكفر، بالرغم مما تيسر في الحقبة المعاصرة من تطور في وسائل البحث العلمي ووسائطه أتاح الاطلاع الواسع على التراث الصوفي الموجود منه والمفقود، ومتابعة ما استجد من مناهج ونظريات تقدم رؤى جديدة لتاريخ الفكر الإسلامي، تمكن الباحث المتجرد والباحث عن الحق والصواب من تتبع مسارات رجالات التصوف ورصد تطورهم الفكري ونضجهم الروحي وتأثيرهم الاجتماعي، والقدرة على مقارنة مقالاتهم المتقدمة عن المتأخرة، والوقوف على المقطوع بصحة النسبة إليهم والمدسوس عليهم إلى غير ذلك من أوجه البحث العلمي الصبور والرصين الذي يتحمل مسؤوليته التاريخية، والذي ينأى بنفسه عن المزايدات المتحاملة التي تنتقي من تراثنا الفكري بشكل تجزيئي يخدم الأغراض الشخصية وليس الحقائق العلمية والخلقية، مما يتطلب كثيرا من التأني يراعي ظروف إنتاج وتلقي وتداول المعرفة الإسلامية في القرون الماضية، وحسبنا في هذا الموطن الإشارة إلى ابن الجوزي الذي نجده في الوقت الذي يقدح في شيوخ التصوف، يترجم للعديد من علمائه

ورموزه وما يقتضي ذلك من الاعتراف بفضلهم ومنزلتهم، فالمنطق الأخلاقي والعلمي فرض على ابن الجوزي التخلص من سابق الأحكام، والتمييز في الطريق الصوفي بين المحققين والمنتحلين وغير ذلك من المقتضيات التي تحتاج إلى مزيد فحص واستقصاء في باقي شهادات كبار العلماء والتي ينبغي التعامل معها في نسقيتها الكلية وليس ببتر واجتزاء، والذي نجده يمثل في كتابات بعض الباحثين المعاصرين المطبوعة بالتحامل المغرض على التصوف، والموقف العدائي المسبق منه، فقد اختار عبد الرحمن الوكيل مثلا ، كتابين مستقلين منسوبين لبرهان الدين البقاعي[1] أحدهما في تكفير ابن عربي، والآخر في تكفير ابن الفارض[2]، فعمد إلى إخراجهما في كتاب واحد تحت مسمى «مصرع التصوف»، وذلك تحقيقا لمسبقاته المحددة سلفا بل نجده يتعقب بالنقد كلام المؤلف المفيد للإنصاف والاعتدال كقوله: «هذه الدعوى الكذوب»[3]، تعليقا على إقرار المؤلف أن الصوفية فقهاء. ومن موقع المتحامل أيضا يستدرك محمد جميل غازي على ابن تيمية إنصافه للمحققين من الصوفية بقوله: «لا يا شيخ الإسلام»[4].

لقد أدى الإخلال بمقتضيات الاستقلال الفكري، إلى اجترار أحكام مرسلة حول التصوف الإسلامي لا سند علمي لها البتة، كدعوى أجنبية مصادر التصوف وكونه ذا أصول غير إسلامية، التي طالما رددها المستشرقون وتابعهم عليها بعض الدارسين المسلمين دون تبين ولا تثبت، وذلك إيثارا لطريق التقليد والمتابعة العمياء، وتنكبا عما يقتضيه البحث العلمي من التحقيق والتجرد والاستقلال.

1. (809 هـ – 885 هـ) إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط –بضم الراء وتخفيف الباء– بن علي بن أبي بكر البقاعي، أبو الحسن برهان الدين: مؤرخ أديب. أصله من البقاع في سورية، وسكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، وتوفي بدمشق. له عدة مؤلفات منها: (عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والاقران)، و(الباحة في علمي الحساب والمساحة) و(أخبار الجلاد في فتح البلاد). الأعلام، 56/1.
2. (576 هـ – 632 هـ) عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، أبو حفص وأبو القاسم، شرف الدين ابن الفارض: أشعر الصوفية. يلقب بسلطان العاشقين. في شعره فلسفة تتصل بما يسمى «وحدة الوجود»، نشأ بمصر في بيت علم وورع. ولما شب اشتغل بفقه الشافعية وأخذ الحديث عن ابن عساكر، وأخذ عنه الحافظ المنذري وغيره. ثم حبب إليه سلوك طريق الصوفية، فتزهد وتجرد. له «ديوان شعر» جمعه سبطه علي. وشرحه كثيرون منهم حسن البوريني وعبد الغني النابلسي. الأعلام، 55/5.
3. تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد، لبرهان الدين البقاعي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، نشر: عباس أحمد الباز، مكة المكرمة، (د.ت). ص 209.
4. أنظر الصوفية والفقراء، لابن تيمية، تقديم: محمد جميل غازي، دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، (د.ط، ت). ص 3.